ثورية القومية العربية

بقلم الدكتور عبد الله عبد الدائم

الثورة كلمة عريضة ، دب اليها كما دب الى غيرها من الشعارات الذائعة ، غموض وقلق . وليس المجال ههنا مجال تحديد معانيها . ومثل هذا المطلب ليس بالمطلب اليسير ، اذا اخذنا الكلمة في مدلولها المطلق عارية عن أي زمان ومكان .

وحسبنا ان نسهم في توضيح معالم الفكرة الثورية بعد ان نضعها في اطار زمان معين ومكان معين، اي في اطار الفكرة القومية العربية في مرحلتها الراهنة . ونقدم بين يدي هذا التوضيح المتصل بالفكرة الثورية في القومية العربية ، بعض الصوى نضعها على الطريق . اذ مهما يكن من امر المضمون الفكري والفلسفي لكلمة ثورة ، يظل من اللازم ان تستبين الفوارق بينها وبين فكر تقرن بها غالبا ، وتكاد تكون بمثابة التوائم لها. ونعني بهذه الفكر: المحافظة والاصلاح والتقدم.

اما المحافظة فنسبها الى الثورة نسب تضاد ، وهي تذكر في معظم الاحيان كنقيض لها . والبون بينهما على وضوحه بعض الشيء ، يحتاج في الواقع الى مزيد من الجلاء في الاذهان . فالفكرة المحافظة كثيرا ما تؤخذ على انها فكرة تعني استمرار ما هو قائم وبقاء الاوضاع على ما هي عليه . وكثيرا ما يخيل الى الاذهان انها لا تحمل بالتالي فكرة معينة ومذهبا ذا حدود واصول ، وانها لا تعدو ان تقرر قولة ليبنتز بان هذا العالم هو احسن العوالم الممكنة ، وان ليس في الامكان ابدع مما كان .

والواقع ان الفكرة المحافظة ، ولاسيما في عصرنا ، وبعد تطور الافكار الثورية وانتشارها ، لم تعد على هذا النحو البدائي، وحاولت ان تضمن مفهومها مباديء معينة، بل ثورية من نوع خاص ، نستطيع ان نسميها ثورية مقلوبة . ولم تعد هذه الفكرة المحافظة تعني ذلك الشكل الاولي منها ، شكل التغني بماض زائل والاستمساك العاطفي بعصور خالية لها عندها صفة القداسة . وهي في معظم اتجاهاتها الحديثة تعني شيئا اوسع من هذا واصلب عودا ، نجده عند ذلك الفريق الذي تطلق عليه احيانا تسمية اخرى ، هي تسمية « الرجعية » . فالرجعي لا يأسف على الماضي لما له في نفسه من سحر ، وانما يتعلق به لاسباب لا شأن لها بالشعر والخيال : يتعلق به تعلقه بمبدأ اساسي لديه، هو ان الطبيعة الانسانية واحدة غير متغيرة ، وان الانسان مخلوق لان يحيا في ظروف محددة ، هي تلك الظروف التي يدافع عنها ويطلب العودة اليها ، لاسباب لا مجال الى تحليلها ، بعضها شعوري وبعضها لا شعوري . وهكذا نجد ان الماضي الذي يدعو اليه الرجعي ، ما هو بالماضي الغائم ، وما هو مجرد الاستمرار في تقاليد معينة ، وانما هو قبل هذا وفوق هذا ماض مشخص ما تزال بعض عناصره قائمة في الحاضر ، وما يزال بالتالي من الممكن في نظره ، لهذا السبب ، ان نعيده كاملا . وبتعبير اخر اوضح ، يشترك المحافظ مع الثوري في ان كليهما يرى في الحاضر انحرافا عن المجرى الطبيعي للتاريخ ومغايرة لمستلزمات الطبيعة الانسانية . سوى ان الرجعي يرى خلافا للثوري ان الطريق المؤدية الى اصول الطبيعة البشرية وجوهر الانسان طريق شاقة طويلة مليئة بالمخاطر ولهذا كان لا بد من اجل تغيير المجتمع من نموذج معين معروف ، سبق ان اثبت قيمته وشأنه في أجيال خالية ، وعلينا بالتالي ان نقتنيه من جديد بعد ان ننزع عنه ما فيه من أشياء تجاوزها الزمن وندخل عليه بعض التعديلات التي تتلاءم مع الظروف الجديدة للحياة .

وفي هذه الناحية يلتقي الرجعي مع الثوري ويختلف عنه في آن واحد . فالثوري بدوره يؤمن بما يمكن ان ندعوه « اسطورة الاصول » ونعني بذلك انه يهدف هو ايضا الى ان يعيد الانسان الى صفائه الاول والى ان يخلص الماضي من الطفيليات التي نمت على هوامشه فغطته وكادت تطحنه بثقلها . سوى انه يفترق عن الرجعي في شيء اساسي هو انه لا يستمسك بحرفية ماض معين ، وانما ينبش في الماضي اوضاعا تعبر تعبيرا صادقا عن الطبيعة الانسانية في كامل تحققها وعلى نحو ما يفهمها ، ويود ان يقذف في المستقبل التحقيق الكامل لمثل هذه الاوضاع التي تاهت وضاعت . فالثوري يؤمن بالديمومة ايمانه بالصيرورة ، وهو اذ يتجه بكامل قواه نحو المستقبل يحاول ان يجد تبريرا لهذا المستقبل في الماضي ، دون ان يقيد هذا المستقبل بخطوات الماضي كاملة ودون ان يحصر نفسه في اطار ماض محدد لا يتجاوزه . انه يبحث خلال تاريخ الانسان عن

الصفحات التي تجلت فيها اصالته ، ويود ان يكمل هذه الصفحات مستلهما روحها لا شكلها .

تلك لمحة عابرة عن اواصر النسب بين الثورة والمحافظة. ويستبين الامر اوضح ان نحن نظرنا في الصلة بين الثورة والتقدم . فعلى حين نجد الرجعي والثوري يشتركان في الوقوف من الحاضر موقفا سلبيا ، وفي اعتباره شذوذا تاريخيا وانحرافا بالقياس الى مثل اعلى معين نجد التقدمي يقبل على العكس واقعه وعصره كما هو ، بكل ما فيه من خصائص ، لانه يرى فيه خطوة تقدمية بالقياس الى ما سبقه . ذلك انه يرى ان كل ما في التاريخ يخضع لقانون التقدم والتطور الذي لا يغلب، والتطور التاريخي، اذ يسيطر عليه هذا القانون ، عملية لاردة فيها تسوقنا في تيارها السائر شئنا ام ابينا ، ومن العبث ان نحاول معاندتها . ومقاومتها لا تعدو ان تكون ضربا من مقاومة نظام الفصول الطبيعية او تتابع الاجيال البشرية . وعلى حين نجد الرجعي يعتقد ان في وسعه ، بعد شيء من التعديل وبعد اجراء بعض التنازلات ، ان يعاود مجرى التاريخ وان يصعد اليه كرة اخرى ، ضمن حدود تاريخ معين على اقل تقدير ، نجد التقدمي يستسلم لمجرى التاريخ هذا استسلاما كاملا . انه يستلقي فيه ويحمل نفسه في تياره ، لا كسلا ولا عجزا او ايمانا بقدر محتوم ، بل ايمانا منه بأنه اكتشف القانون الاكبر الذي يسيطر على مصير الانسان فماله عنه من محيد، قانون التقدم ، قانون تطور وفق خط مستقيم يستوي الى الابد . والحق ان فكرة الابدية واللاتناهي هي المسلمة الاولى في قانون التقدم . ومن هنا كان جوهر التقدم انه لا يحمل في طياته مستقبلا معينا يمكن التنبؤ به،وانه لا يعبأ برغباتنا ومنازعنا ومثلنا العليا ، واننا نجهل الجهل كله ما عساه يخبيء لنا في مستقبل قريب او بعيد ، اكارثة كونية ام جنة عدن !

من هنا نرى انه اذا كان الرجعي هو رجل «الاشياء المحددة الثابتة » فالتقدمي ، على العكس تماما ، متحرر من اي « تثبت » على شيء ، ومن اي «وقفة» عند حدود عصر تاريخي معين. وعلى حين نرى الاول متعلقا بماض معين ، محدد في الزمان ، نرى الاخر ينظر الى اي ماض نظرته الى شيء مضى وانقضى ولا سبيل الى اعادته . وعلى حين نجد الثوري متعلقا بمستقبل معين واضح المعالم بوجه عام، نلفي التقدمي مؤمنا بلا ادرية مطلقة بالنسبة الى المستقبل .

على ان حدود المفهوم تستبين عن طريق قرنها بعد هذا بالمفهوم الاصلاحي خاصة. فالمفهوم الاصلاحي اقرب نسبا الى المفهوم الثوري من المفاهيم السابقة ، بل هو المنافس الذي يتلبس به دوما ويزيف حقيقته . وكثيرا ما نجد المفهوم الثوري يتردى في بعض الاذهان الى مفهوم الاصلاح ، فيفقد معالمه الاصلية . ذلك ان فكرة الاصلاح تتفق مع فكرة الثورة في الدعوة الى مستقبل معين واضح الحدود ، فيه تقويم للاوضاع وعودة بالانسان الى الاصول. غير انها تفترق معها افتراقا بائنا في الاسلوب الذي ترسمه للوصول الى هذا المستقبل . فهي ترى ان في مقدورنا ان نصل الى المستقبل المنشود ، ايا كانت معالمه ، عن طريق حركة تطورية اصلاحية نجريها ضمن المجتمع القائم ، تؤدي الى تقوية بنيته شيئا بعد شيء والسير نحو السلامة المرجوة . بينما ترى الفكرة الثورية ان مفاسد الحاضر هي من التداخل والتشابك بحيث لا تجدي فيها الاصلاحات الجزئية ، ولا بد لتغييرها والانقلاب عليها من ثورة شاملة ، ثورية جذرية تتناول الاشياء من قواعدها ، وتبدأ بالبداية . وبتعبير اخر نستقيه من ميدان الصحة الجسدية ، ترى الفكرة الاصلاحية ان علاج الامراض الاجتماعية لا يحتاج الا الى ادوية عادية طويلة المدى ، بينما ترى الفكرة الثورية ان هذا العلاج في حاجة الى عملية جراحية ، الى استئصال لاصول الداء وجذوره ، الى التخلص من البؤرة السرطانية .

من خلال هذه الصوى المتفرقة تستبين لنا بعض الشيء اهم ملامح الفكرة الثورية . انها اولا فكرة تؤمن بنموذج انساني معين ، تحققت بعض جوانبه في الماضي ، ولا بد من جهد ثوري لتحقيقه كاملا في المستقبل . وهي ثانيا ترفض حرفية الماضي وعودته في شكله كاملا ، ولكنها تؤمن بروح معينة نجد تجليات لها في هذا الماضي ويمكن ان تأخذ في المستقبل شكل تجليات اخرى مبدعة. وهي ثالثا لا ترى ان تحقيق النموذج الانساني الذي تهدف اليه يمكن ان يتم عن طريق تطور التاريخ تطورا عفويا ، بل تؤمن بان لا بد من التدخل في مجرى التاريخ، وان هذا التدخل هو جوهر الانسان ووجوده. سوى انها لا تكتفي من هذا التدخل بالاصلاح العابر الجزئي ، بل ترى ان بلوغ المثل الاعلى الانساني لا بد فيه من انقلاب كامل على الحاضر ، لا بد فيه من انقلاب تام في المفاهيم والقيم والوسائل .

ولا يعني الانقلاب الكامل على الحاضر والانفصال عنه ، تجاهله والجنوح الى عالم خيالي طوبيائي ، وانما يعني على العكس استخدام هذا الحاضر استخداما جديدا من شأنه ان يعيد تشكيله ويكونه تكوينا مبتكرا سليما . وبتعبير اخر ، لا ينظر الثوري الى الواقع القائم على انه هو الواقع الانساني الاصيل ، وان له بالتالي صفة الحق الشرعي في البقاء ، وانما ينظر اليه على انه هو الشيء المنحرف غير السوي ، وان قلبه يعني اعادة الامور الى نصابها ورد الاشياء الى طبائعها . وبكلمة اخرى ايضا ، لا يخاف الثوري من المفاسد القائمة في الحاضر خوفا يشل ارادته وتفكيره ويجعله يعتقد بانها هي الشيء الوحيد الممكن ، وانما ينظر الى المفاسد نظرته الى « تشكلات سطحية » دخيلة ، تزول بيسر اذا حركتها يد من داخل ، يد ثورية تحمل حرارة النظرة الصحيحة .

واذا اردنا تصويرا اخر للفكرة الثورية، قلنا ان هذه الفكرة

تؤمن بنوع من الحركة الخلاقة الشاملة التي اذا وجدت غيرت كل شيء ، ولا تؤمن بان بناء الاشياء والمجتمع يمكن ان يكون ذرة ذرة وقطرة قطرة . انها تعتبر حركة الحياة حركة مبدعة تعمل عن طريق تيار حيوي مبدع يصهر الاشياء صهرا جديدا . وترى ان التطور عن طريق رصف الاشياء نقطة نقطة ورملة رملة ، امر يحتاج مثالا يتناهى من السنوات ، ويقصر عنه عمر التاريخ . ولا بد بالتالي في تغيير الامور من روح تطغى على كل شيء ، نظرة تقلب ، موقف نفسي من شأنه ان يهب الاشياء القائمة غير شياتها ، وان يمنح مواد الواقع غير صفاتها .

ومن هنا ينشأ سوء التفاهم بين الثوري وغير الثوري ، اذ يتكلم كل منهما لغة غير لغة الاخر ، ويبدأ من بدايات مفترقة . ففير الثوري حين يتهم الثوري ، كما يقع غالبا ، بالخيالية ، لا يحاول ان يفهم منطقه من داخل ، وانما يسلط عليه منطقا هو المنطق الذي يريد هذا الثوري ان ينقلب عليه . والخلاف بينهما بالتالي خلاف في الحدس الاصلي. فالحدس الاصلي عند غير الثوري حدس مستسلم خائف ، غير مدرك لصفحة الواقع كاملة ، ينظر الى الجزء على انه الكل ، ويعتبر النتائج اسبابا ، والفروع اصولا . اما حدس الثوري فحدس جامع شامل ، ينظر الى الامور كلها في سائر مفاصلها وحلقاتها ، وينبش خيطها الناظم وروحها الرائدة ، فيثق ويطمئن حين يدرك ان ما يخيف غيره ما هو الا قشرة سطحية زائلة ، ونتائج لا اسباب ، نتائج لموقف مغلوط من الاشياء ونظرة مقلوبة الى الامور . ويؤمن في نهاية الامر ان هذا البنيان الفاسد متداع من تلقاء نفسه ساعة نبدأ من الجذور وننطلق من موقف انساني خصيب .

*

من خلال هذه الامور كلها يمكن ان نفهم الفكرة الثورية في القومية العربية . ان هذه الفكرة في قلب الواقع وصميمه ، ولكنها تأبى ان تعترف على الواقع المشوه ، لتنصبه في مقام الاصل ، وان تترك الاصل واضعة اياه في مستوى الخيال .

واول ما تقرره في هذا المجال ان واقع العرب الحقيقي لا يثوي في كيانهم المجزأ ، وانما يثوي في كيانهم الموحد . وهي اذ تقرر ذلك تستند الى واقع خلاق تؤيده النظرة الشاملة السوية، انها لا تقول بالوحدة قولها بفكرة خصيبة منتجة ذات مردود عملي قوي فحسب ، وانما تقول بالوحدة لانها ترى ، بالاستناد الى التاريخ والى واقع الشعور العربي ، ان التجزئة من نتائج الكيان المريض للامة العربية ، وان العودة الى الوحدة تعني تصحيح الاوضاع ورد الامور الى نصابها . وهي اذ تقرر ذلك تعيش في صلب الواقع ، الواقع الحي كما يظهر للحدس الشامل الكامل ، لا للنظرة القاصرة العشواء : فالواقع هو الذي يؤكد لها ان القيم الانسانية الحضارية للامة العربية كانت يوم وحدتهم . والواقع هو الذي يبين لها ان التجزئة كانت تتكاثر وتسير جنبا الى جنب مع ضعف الكيان العربي ودخول العوامل المخربة فيه . والواقع هو الذي يحدثهم عن ان القوى النفسية الحقيقية للامة العربية تنطلق من خلال الاحاسيس العربية المبثوثة في كل عرق ، وان عناصر الابداع العربي تنتظر كيانها الطبيعي الذي تتحقق فيه، كيان الامة الموحدة والواقع هو الذي يوميء فوق هذا كله الى ما ينتظر من وحدة العرب من نتائج تتصل بزيادة طاقاتهم الروحية والاقتصادية والعسكرية ، زيادة ليست مبرر الوحدة دون شك ولكنها قرينة تدل على اصالة الوحدة واتصال فكرتها اتصالا حيا بجوهر وجود العرب على الارض .

على انه ان كانت فكرة الوحدة العربية هي رأس الافكار الثورية التي نجدها في القومية العربية ، فهذا يعني شيئا لا ثاني له وهو انها لا يمكن ان تتحقق الا عن طريق عقل ثوري وعمل ثوري . انها ، اذ تصدر عن حدس ثوري اصيل ينظر الى الاشياء نظرة فيها تخط للفساد وتجاوز للنظرات الجزئية وذهاب الى الاصول ، لا بد كيما تتحقق فعلا من ان يكون اسلوب عملها اليومي ونضالها الدائم مستوحى من مثل هذا الحدس حافظا له . والمنزلق كما قلنا هين خطير بين الفكرة الثورة والفكرة الاصلاحية . والفكرة الاصلاحية هي التي تنتحل عادة لنفسها صفة الثورية وهي التي تتزيى بزي الثورة فتزيفها وتبعدها عن اصولها وعن حرارتها . وفكرة الوحدة العربية كما قلنا ونقول فكرة اما ان تصدر عن ثورية اصيلة واما الا تكون البتة . بل ان انقلابها الى ضدها لا بد واقع ان هي ظنت ان الوحدة يمكن ان تتم عن طريق مهادنة التجزئة ، او عن طريق السير بعقلية التجزئة ضمن الوحدة .

ان العمل للفكرة العربية ، لكونه عملا ثوريا ، لا بد فيه من نضال يومي في سبيل هذه الفكرة ، ولا بد فيه من نظرة شاملة كاملة تغذي كل سلوك يومي وتطبع كل حركة. وليس اعداء الوحدة الحقيقيون اولئك الذين لا يأخذون بها فهؤلاء لن يقووا على مغالبة طبائع الاشياء ـ بل اعداؤها الحقيقيون هم اولئك الذين يأخذون بها دون ان تغذيهم فكرتها الثورية الحقيقية ، والذين يتبنون شعاراتها ظاهرا ويعيشون في عقلية التجزئة باطنا . فمثل هؤلاء هم الذين يتيحون لاعداء القومية العربية أن ينقضوا عليها ويفضحوا ثغراتها ، وما يفضحون في الواقع ثغرات فيها ، وانما يفضحون اسلوبا خاطئا في فهمها او انفاذها .

ولا يتسع المجال للحديث عما ينسحب من هذه النظرة الى ثورية الفكرة العربية من نتائج لا حصر لها تتصل بالوسائل الثورية لبلوغها .

وحسبنا ان نذكر ان الفكرة العربية ، ما دامت نظرة الى الانسان عامة ونظرة الى الانسان العربي خاصة ، لم تعد مجرد امنية او مداعبة عواطف ، بل غدت شيئا ذا مضمون ايجابي بناء، من شأنه ان يجعل من هذه الفكرة فكرة خصيبة ترفع مستوى العربي الحضاري والانساني وتجعله عاملا من عوامل المدنية في العالم . ولهذا كان المضمون الذي

تنادي به الجمهورية العربية المتحدة اليوم ، حين تجعل هدفها بناء مجتمع اشتراكي ديمقراطي تعاوني ، مضمونا اساسيا في اعطاء الفكرة العربية كامل معناها وتحميلها تمام ثوريتها . انه هو القمين بان يوقظ ملايين الشعب العربي الراكدة التي حالت ظروفها الاقتصادية والاجتماعية السيئة بينها وبين ان تبدع وتعطي. انه هو الذي يقدم للانسانية وثبة حضارية حقة اذ يحرر هذه الملايين من قيود اوضاعها ، واذ ينطلق من فكرة اساسية وهي ان الخير والعطاء للامة العربية وللانسانية يثويان في هذه الجموع الشعبية الغفيرة المحرومة التي تنتظر من يفك عنها الاغلال لتنطلق وتبدع .

ان ثورية القومية العربية تحمل معناها اولا واخرا في قدرتها على ان تحرر الانسان العربي وتطلق قوى الابداع لديه. انها تصور عن مسلمة اولى هي ان التحرير العميق الحق لهذا الانسان لا يمكن ان يكون الا ضمن كيان عربي موحد يتحمس له ويستخرج في سبيله كل مدى طاقاته وامكانياته ويجد ذاته في اطاره .

ومعنى هذا بلغة اخرى ان الوحدة هي الاطار السليم لتحقيق مضمونها ، وانها وهذا المضمون شيء واحد ، ولا سبيل الى فصل احدهما عن الاخر . وثورية فكرة الوحدة تأتيها من انها تخرج من ذلك الدور الفاسد المعطل . وقوام هذا الدور الفاسد او الحلقة المفرغة ان الوحدة لا تتحقق الا اذا تحرر ابناء الشعب العربي من قيود اوضاعهم الاجتماعية فأصبحوا سادة مصيرهم . انها تكسر هذا الدورحين تقرر ان التربة الطبيعية لتحرير الشعب العربي المحروم المهمل هي تربة الوحدة ، وان انتظار تحرر الشعب العربي ضمن اطار التجزئة مباينة لمنطق الواقع ، اذ يعني هذا الانتظار تعريض الشعب العربي ضمن التجزئة لعبودية اكبر وقيود داخلية وخارجية اخطر . ولهذا كانت ولادة الجمهورية العربية المتحدة على الشكل الذي جرت عليه عملية ثورية اساسية ، اذ صدرت عن ايمان بان الوحدة هي سبيل القضاء على المفاسد والادوار التي تحول دون قيام الوحدة ، وان التوحيد بحد ذاته عمل مبدع خلاق من شأنه ان يولد طاقة جديدة تقوى على محاربة المفاسد التي لا تقوى عليها التجزئة . وهكذا عزمت الجمهورية العربية المتحدة بخطواتها الجبارة على ان تقضي على اخطار الوحدة ضمن الوحدة وفي قلب الوحدة ، ووجدت ان السبيل الثورية الوحيدة للتغلب على ما يحول دون الوحدة هو ان نحققها عن طريق عزم مبدع خلاق ونتابع ضمنها ، عن طريق مثل هذا العزم الخصيب ، القضاء على ما يناقضها .

وقد جاءت المراحل التي تلت ولادة الجمهورية العربية المتحدة مؤكدة لهذه النظرة . فالجمهورية العربية المتحدة تلقى كل يوم آلام هذا المخاض الجديد ، وتعاني دوما من آثار التجزئة السابقة وبقايا العقلية الماضية ، ولكنها تتغلب على هذا كله ضمن كيان الوحدة وتستمد من الوحدة نفسها قوة ثورية ما كانت لتيسر لها بدونها،وتقوى ان تصهر ضمن بوتقة الوحدة ما كان عسيرا ان يصهر خارج بوتقتها . وهي بعد هذا ، بل قبل هذا ، حين تنطلق في طريق البناء الاجتماعي والتشييد ، تقوي يوما بعد يوم عوامل الوحدة ومقوماتها ، وتخلق عناصر قوتها واكتمالها .

وبمقدار ما يتحقق لهذه النواة الاولى للوحدة من الاكتمال تجذب اليها اجزاءها الاخرى ويصبح لقاؤها معها لقاء طبيعيا . ان الفكرة الثورية اساس وجود الانسان وهي القوة المحركة الغلابة في كل مجتمع . وهي في البلاد العربية خاصة قوام وجود الطليعة الموجهة فيها . ولا بد ان تتلاقى الحركات الثورية التي تعيش في نفوس هذه الطليعة العربية انى وجدت . على ان مسؤولية الجمهورية العربية المتحدة مسؤولية كبرى في هذا اللقاء . فهي التي تمنح القوة لهذه الحركات الثورية عن طريق ما تشيعه من تحقيق خصيب للاهداف الثورية ضمن كيان مؤهل اكثر من غيره لتحقيق مثل هذه الاهداف .

*

وبعد من العسير ان نستنفد في هذه الصفحات موضوعا هو موضوع وجود الامة العربية وقوام كيانها الراهن . وحسبنا ان نبشنا عابرين بعض معالمه ، تاركين للثورة العربية الكبرى التي نعيشها ان تسطر في الواقع الحي القسمات الكاملة للفكرة الثورية في القومية العربية .

دمشق — **عبدالله عبد الدائم**